المادة: الأسلوبية وتحليل الخطاب **الأستاذ: فريد زغلامي**

المستوى: السنة الثانية دراسات أدبية/ الفوج 03

المحاضرة السابعة : الظواهر الأسلوبية (الانزياح والمفارقة)

تعد اللغة مادة الأدب الأولى، ولكن اللغة في الاستعمال اليومي العادي تختلف جذريًا عن اللغة في الإبداع الأدبي. فاللغة العادية تهدف إلى التواصل المباشر ونقل المعلومات، بينما تسعى اللغة الأدبية إلى إثارة الدهشة وتوليد الانفعال وخلق عوالم جمالية جديدة.

وتعتبر الظواهر الأسلوبية من أهم العناصر التي تمنح النص جماليته وفرادته، وتمثل جوهر الشعرية فيه، ومن أبرز هذه الظواهر: الانزياح والمفارقة، وهما من الأدوات الأساسية التي يوظفها الشعراء والكتاب لإثراء النص، وجذب انتباه القارئ والتأثير عليه.

أولاً: ظاهرة الانزياح (Écart/Deviation)

1- مفهوم الانزياح:

يعد الانزياح من أكثر المصطلحات شيوعا في الدراسات الأسلوبية المعاصرة، ويعرف على أنه:" فن القول الذي يبتعد عن المعيار"، ويُراد بالمعيار النسق اللغوي المتعارف عليه، أو قانون اللغة الثابت، فهو بذلك: "خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر، أو هو خروج على المعيار لغرض قصد إليه المتكلم، أو جاء من عفو الخاطر، لكنه يخدم النص بحالة أو بأخرى وبدرجات متفاوتة".

فالانزياح، إذاً، هو انتهاك مقصود لقواعد اللغة العادية، لتحويل اللغة من وظيفتها الإخبارية إلى وظيفتها التأثيرية.

2- إشكالية المصطلح:

اختلفت تسميات هذا المصطلح في الثقافة الغربية وذلك باختلاف الباحثين الذين تعاملوا معه، فهو:

- "الانزياح" أو "التجاوز" عند "بول فاليري".
- "الانحراف" عند "ليوسبتزر".
- "الفضيحة" عند "رولان بارت".
- "الانتهاك" عند "جون كوهين".
- "خرق السنن أو اللحن" عند "تزفيتان تودوروف".

• "العصيان أو الجنون" عند "لويس أراغون".

• "خيبة الانتظار" عند "رومان جاكبسون".

من هنا نجد أن الأسلوبين لم يتقيدوا بمصطلح أو مصطلحين، بل وظفوا الكثير منها في سياق حديثهم عن ظاهرة الانزياح، بحثاعن الإلمام بكل أبعاده.

3- أنواع الانزياح:

يُقسم الانزياح في العادة إلى أحد الأنواع التالية:

أ- **الانزياح الدلالي:** وهو الخروج عن المعنى الحقيقي للكلمات أو العبارات عبر الاستعارة أو التشبيه أو المجاز عموماً.

مثال: قال التنبي: (الخيل والليل والبيداء تعرفني **** والسيف والرمح والقرطاس والقلم).

يظهر الانزياح هنا في إسناد المعرفة إلى الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم، وهي أشياء غير عاقلة، لكن الشاعر جعلها كأنها تعرفه للدلالة على شهرته وبطولته وشاعريته.

ب- الانزياح التركيبي: الخروج عن النظام النحوي المألوف أو الرتيب للجملة لتحقيق غرض جمالي أو دلالي. يقول جون كوهين: " إن الانزياح التركيبي هو انتهاك لسنن اللغة من أجل إقامة سنن الشعر". وصور الانزياح التركيبي تظهر في التقديم والتأخير والحذف والاعتراض وغيرها.

1- التقديم والتأخير: وهو أشهر أنواع الانزياح التركيبي، حيث يُقدَّمُ ما حقه التأخير لإبراز أهميته أو لعرض الحصر والتشويق.

مثال: يقول المتنبي: (على قدر أهل العزم تأتي العزائم). الترتيب الأصلي: تأتي العزائم على قدر أهل العزم، وغرض تقديم شبه الجملة التوكيد على أن قيمة العزائم مرتبطة بقدر أصحاب العزم / إبراز المعنى وإعطائه قوة في الأسلوب الشعري.

2- الحذف: حذف الشاعر ركنا أساسيًا فى الجملة (المبتدأ مثلاً أو الفعل أو الفاعل) ويترك للقارئ مهمة ملء الفراغ، مما يخلق نوعاً من التكثيف الدلالي، وتجنب التكرار، وجذب انتباه المتلقي.

مثال: المتنبي: (إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى**** ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه).

الأصل: ظمئت أنت، فقد حذف الفاعل الظاهر (أنت) لأنه مفهوم من الفعل ومن السياق، والاكتفاء بالضمير المستتر في الفعال (ظمئت)، والغرض من هذا الحذف الإيجاز والاختصار وتجنب التكرار والحفاظ على الوزن الشعري وجعل المعنى أكثر بلاغة وقوة.

وعليه فإن للانزياح في اللغة العربية صور كثيرة، فقد يكون – كما أشرنا – في التقديم والتأخير والحذف والاعتراض أو التذكير والتأنيث، الخروج على القاعدة النحوية إجمالاً وضع المفرد مكان الجمع، اللفظ الغريب بدل المألوف، البعد في التشبيه، الغرابة في الاستعارة، الكناية، المجاز عموما، التكرار... .

4- غايات الانزياح وأهدافه:

إنه، وللأهمية التي يكتسبها الانزياح، فقد عده بعض الأسلوبيين الأسلوب نفسه. لقد جاء الانزياح لإخراج اللغة من دائرة المعاني المعجمية الضيقة والمعيارية المحددة، إلى دائرة النشاط الإنساني الحي، ومن غاياته أنه يلفت انتباه القارئ أو السامع ويفاجئه بشئ جديد، ويحرص على عدم تسرب الملل إليه، حتى لا تفتر حماسته لمتابعة القراءة، أو يفوته معنى يحرص الكاتب على إبلاغه إياه. وفي هذا تختلف الكتابة الفنية على الاستعمال العادي للغة، كما أنه يحقق البعد الجمالي للأدب.

5- محاذير الانزياح:

إن الانزياح ظاهرة أسلوبية تكون أكثر قبولاً في نفس القارئ إذا جاءت من عفو الخاطر دون تكلف، شأنها في ذلك شأن ألوان البديع، إذ إلى المبالغة في هذا الأمر تفضي إلى التعقيد، ويتحول الأسلوب عندئذ إلى غموض، فلابد من الاعتدال في الانزياح ؛ لأن المبالغة ستكون على حساب المعنى، فيشوبه الغموض، ويستغلق فهمه على القراء. وقد تناول النقاد محاذير الانزياح، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

• لا يمكن تحديد الانزياح، فليس له نقطة ينطلق منها وأخرى يتوقف عندها.

• ثمة انزياحات ليس لها تأثير أسلوبي، كالأخطاء النطقية أو الكتابية والتراكيب النحوية الخاطئة والمحذوفات والجمل غير الكاملة.

• إن التركيز على الانزياح (الصفات الأسلوبية المنزاحة) يهمل النص وتراكيبه المتعددة.

• إذا عددنا الأسلوب هو الانزياح، فهذا يعني أن النصوص التي لا تنزاح على المعيار تخلو من الأسلوب.

• ليس كل انزياح يصنع الأسلوب، وكذلك كل مفاجأة تنتج الأسلوب.

ثانياً : ظاهرة المفارقة (Paradox, Irony)

المفارقة أداة تعبيرية تقوم على التناقض بين المعنى الظاهر والمعنى الحقيقى المقصود، وقد عرفها "صامويل جونسون" على أنها: "وسيلة من وسائل التعبير يناقض فيها المعنى الكلمات". فالكاتب يقول شيئا، لكنه يقصد شيئا آخر مختلفاً، مما يصدم القارئ ويدفعه لإعادة التفكير في المعنى.

ويندرج تحت هذه الأداة الأسلوبية: المدح في صيغة الذم والذم في صيغة المدح؛ لأنها الوسيلة الأسلوبية التي يمكن أن يلجأ إليها المبدع من أجل فهم المتناقضات، والمحافظة على التوازن في أي عمل فني، وبالتالي منح القارئ فرصة للتأمل فيما تقع عليه العين، أو ينتبه إليه الذهن من هذه التناقضات.

1- أنواع المفارقة:

أ- المفارقة اللفظية : والمقصود بها أن المعنى الظاهر للفظ يُغاير ويناقض المعنى العميق المراد (المدح في صيغة الذم والذم في صيغة المدح).

مثال: (عيد بأية حال عدت ياعيد *** ما مضى أمر لأمر فيك تجديد).

يخاطب الشاعر ظاهريا العيد بعبارة ترحيب، لكن دلالتها الحقيقية أن العيد لم يعد مناسبة، بل تذكير بما فقد من أفراح ومناسبات .

ب- المفارقة السياقية / مفارقة الموقف: تحدث عندما تأتي النتيجة عكس ما كان متوقعًا منطقيا أو سياقيا، أي أن الظرف أو الحدث يتخذ مسارا مفاجئا يجعل الوقائع متناقضة مع التوقع.

مثال: أبو العلاء المعري: (تعب كلها الحياة فما أع جب إلا من راغب في ازدياد).

تكمن المفارقة هنا في التناقض بين حقيقة الحياة (المليئة بالشقاء والتعب) وهو ما يفترض ألا يدفع الإنسان للزهد فيها، وبين السلوك البشري المتمثل بالتشبث بها والرغبة في المزيد منها.

ج- المفارقة الساخرة: تظهر في استخدام السخرية الصريحة أو التهكم لنقد السياسة أو المجتمع أو سلوكيات معينة.

• مثال: قال **أحمد مطر**: (قالوا تقدم، فقلت: إلى أين؟ قالوا: إلى الخلف). يظهر هنا تهكم واضح، إذ إن لفظ "تقدم" يستغل ليدل في الواقع على تراجع، إذ تفضح المفارقة الخطاب السلطوي.

وقد تنوعت المفارقة وتشعبت أنواعها واختلفت، حيث وضع لها الباحثون أنماطا بحسب فهمهم لها.

3- وظيفة المفارقة:

تلعب المفارقة دورا مهما في النص الأدبي، إذ تساعد على:

• تكثيف المعنى وتعميق الإحساس بالمأساة أو العبث.

• استفزاز العقل وتحفيز القارئ على المشاركة في استخلاص الدلالة الخفية.

• نقد الواقع وكشف زيفه بطريقة غير مباشرة (السخرية المبطنة).

مما تقدم يمكن القول: إن الظواهر الأسلوبية كالانزياح والمفارقة من أهم الأدوات التي تمنح النص الأدبي قوته الفنية. فالانزياح يحرر اللغة من حدوده العادية، ويجعلها أكثر قدرة على التعبير عن الخيال والعاطفة، بينما تسمح المفارقة للكاتب بالتعبير عن أفكار معقدة أو نقد اجتماعي بطريقة ذكية وغير مباشرة. لذا فإن فهم هذه الظواهر يساعد القارئ على تذوق الأدب بشكل أعمق واكتشاف الطبقات الخفية في النصوص.

مراجع المحاضرة:

- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب.
- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق.
- أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية.
- أحمد مبارك الخطيب، الانزياح الشعري عند المتنبي.
- بن يحي فتيحة، محاضرات في الأسلوبية وتحليل الخطاب.